يَاقوتُ الحَمويُّ
الرَّحالةُ الأَديبُ
(575 ـ 626هـ)

أَعزَّائي وأَحِبَّائي:

ياقوتُ الحَمويُّ، الرَّحالةُ والأَديب، مِن العُلماءِ الّذينَ آمَنُوا بِأنَّ العِلمَ هُوَ أَعظمُ شِيءٍ يَجبُ أَنْ يَحرِصَ الإنسانُ على تحصيلِهِ والسَّعي إِليهِ، ولِهذَا تَركَ مِنْ أَجْلِهِ تَجارَتَهُ العَامِرَةَ والمُربِحَةَ، وآثَرَ أَنْ يعيشَ عيشَةَ الشَّظفِ والفَقرِ، وكَرِهَ أَنْ يتنعَّمَ بالغِنَى والرَّخاءِ وهوَ بعيد عَنِ العِلمِ وتحصيلِهِ.

ياقوتُ الحمَويُّ، الرَّحالةُ والجُغرافيُّ والأَديبُ الَّذي ضَربَ ساعياً في البُلدانِ والأَصقَاعِ، وتحمَّل المَشاقَّ وَركبَ الأخطارَ، وعَانَى مِنَ الويلاتِ، وتَراءَى لَهُ الموتُ والهلاكُ أَكثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وهُوَ رضِي النَّفسِ بِما يُصيبُهُ ويحيقُ بِهِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجلِ جَمْعِ المعلوماتِ، والتَّأليفِ والتَّصنيفِ، والتَّعرفِ على الأَصقاعِ والبُلدانِ والجبالِ والسُّهولِ والوديانِ وكُلِّ ما يتعلَّقُ بُمشاهداتِهِ عَنِ الطَّبيعةِ والإِنْسانِ، يُدَوِّنُ ذَلِكَ في سفرٍ خَالدٍ تَنْتَفِعُ بِهِ البَشَريَّةُ عَلى مَرِّ الأَزمانِ، وتَعاقُبِ الأَجيالِ.

وفضلاً عَنْ كَونِهِ جُغرافياً ومُؤَرِّخاً ناجحاً، فَقَدْ كَانَ أَديباً بارعاً وحصيفاً، وشاعراً مَليحاً لبيباً، قَدْ صَقَلت الشَّدائِدُ والمِحنُ الّتي اعْتَرَضَتْهُ في حياتِهِ خبرَتَه وتَجربتَهُ العِلميَّةَ والأَدبيَّةَ، عَلَى وَجْهٍ جَعَلتْ مِنْ آرائِهِ وأَقوالِهِ حجَّةً في كُتُبِ المُؤَرخينَ والمُصَنِّفينَ في التَّاريخِ والجُغرافيا والأَدبِ.

ياقوتُ الحَمويُّ، العَالِمُ المُجتهدُ، والكاتِبُ الأَديبُ الأَريبُ والظَّريفُ قَدَّمَ لِلأَجيالِ مِثالاً عَنْ تقديسِ العَربِ والمسلمينَ لِلعِلمِ والمَعرفَةِ، وعَنْ تَشْجيعِهِمْ لِلمَرءِ في صِغَرِهِ، لَاحظوا عليه علاماتِ النُّبوغِ والذَّكاءِ، والنهوضَ إلى العِلمِ وتحصيلِهِ.

فَمَنْ كَانَ يَظُنُّ أَو يَأمَلُ بِأَنَ عبداً مملوكاً ـ كياقوتِ الحمويِّ مثلاً ـ يَحوزُ الحريَّةَ والاحترامَ والتَّقديرَ مِنْ سَيِّدِهِ ومالِكِهِ بِما سَعَى إليهِ مِنْ شَرفِ الانتسابِ إلى العِلمِ وإِخلاصِهِ لِوَطنِهِ ودينِهِ وأُمَّتِهِ؟!

فَمَنْ هُوَ ياقوتُ الحَمويُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو عبد اللهِ ياقوتُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الحمويُّ، ثُمَّ البَغداديُّ، وهذا الاسْمُ الكنيَةُ واللَّقبُ كَانَ كُلُّه افتراضيّاً في شخصيَّةِ ياقوت، لأَنَّهُ في الحقيقةِ مجهولُ النَّسَبِ، وكُلُّ ما يُعرفُ عَنهُ أَنَّهُ يَرجع في أَصلِهِ ونَسبِهِ إلى سيِّدِهِ التَّاجِرِ الحَمويِّ الولادَةِ، والبَغداديِّ الإِقامَةِ «عَسْكَرِ بْنِ أَبي نَصر البَغداديِّ» الّذي اشتراهُ مِنْ أَسْواقِ النَّخاسَةِ في بَغدادَ، وتَوَلَّى تربيتَهُ ورعايتَهُ.

والمُؤرخونَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ ياقوتَ الحمويَّ، كانَ غُلاماً مملوكاً في صِغرِهِ، وَلكِنَّهُمْ مُختلفونَ حَوْلَ أَصْلِهِ الحقيقيِّ في رَأْيَينِ مُختلفين:

الرَّأْيُ الأَوَّلُ: فأَصحابُ هَذا الرَّأْي يَقولونَ: أَنَّ والِدَ ياقوت الحَمويِّ، أَصْلُهُ رَجُل عَربيّ مِنْ مَدينةِ «حَماةَ» السُّوريَّةِ، وكَانَ جُندياً في صُفوفِ الجيشِ العربيِّ الإسلاميِّ في عَهْدِ الدَّولَةِ الحَمدانيَّةِ، فَأَسرَهُ الرُّوم في إِحْدَى إِغاراتِهِمْ على الثُّغورِ الّتي كانَ يُرابِطُ فيها، ولَمْ يَسْتطِع الحَمدانيونَ فداءَهُ، فَبقيَ أَسيراً في بِلادِ الرُّوم، وتَزوَّجَ هُناكَ مِنْ فتاةٍ روميَّةٍ فقيرةٍ، أَنْجَبَتْ مِنْه يَاقوتاً، ثُمَّ قُدِّرَ لياقوت وهُوَ لَمْ يَزَلْ غُلاماً صغيراً أَن انْتَقَلَ للعيش في بَغدادَ، وعاشَ مَوْلى لتَاجِرٍ غَنيٍّ مِنْ أَعيانِ مدينةِ بَغدادَ اسْمه «عَسْكَر بْن أبي نَصْرٍ» وعاملَهُ عَسْكَر مُعاملةَ الأبِ لِابنِهِ.

الرَّأْيُ الثَّاني: أَنَّ ياقوتَ أَصْلُهُ غُلام رومي وَقَعَ في الأَسْرِ إِثْرَ إِغارَةٍ شَنَّتْها الجيوشُ العربيَّةُ والإسلاميَّةُ عَلى مُعْسكرٍ للجيوشِ الرُّوميَّةِ عَلَى تخومِ البِلادِ، فَابْتَاعَهُ في مدينةِ بغدادَ رجلٌ تاجرٌ ـ كما يَقولُ ابْنُ خلكانَ ـ اسْمُهُ عَسكَرُ بْنُ أَبي نَصْرٍ إِبراهيم الحَمويُّ، وكَانَ مِنْ عادَةِ العربِ والمُسلمينَ أَنْ يُطلقوا على الموالي والعبيدِ أَجملَ الأسماء وأَكرمَها، فَأطلَقَ عَليهِ عَسكر اسْمَ ياقوت، ونَسبَهُ إلى أُسْرَتِهِ الحمويَّةِ فَصارَ اسْمُهُ ياقوتَ الحمويَّ ولَمَّا كانَ مَجهولَ اسْمِ الأبِ الرُّوميِّ، فَقَدْ جَعلوهُ عَبداً مِنْ عَبيدِ اللهِ، ومُنذُ ذَلِكَ أَصبحَ اسْمُهُ ياقوتَ بنَ عَبْدِ اللهِ، وكُني بِأبي عَبْدِ اللهِ، ولُقِّبَ بِشهابِ الدِّينِ.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ «عَسْكَرُ» رَجُلاً تَاجراً غنيّاً، ولَكِنْ تَعوزُهُ القِراءَةُ والكِتابةُ ولَيْسَ لَهُ مَعرفة بِهما، الأَمرُ الذي دَفعَهُ إلى إِيداعِ غُلامِهِ يَاقوت في أَحَدِ كتاتيبِ مدينَةِ بَغدادَ ليتعلَّمَ القِراءَةَ

والكِتابَةَ ولِيُساعِدَهُ بَعدَ ذَلِكَ في عَمَلِهِ التِّجاريِّ الَّذي يَتَطَلَّبُ مَعرفَةً بِالقِراءَةِ والكِتَابَةِ في كَثيرٍ مِنَ الأَحيانِ.

فَانْدَفَعَ ياقوتُ إِلى التَّعلُّمِ انْدفاعاً عظيماً، كما صارَ يتردَّدُ على مَساجِدِ بغدادَ، وبشكلٍ خاصٍّ المَسْجدِ الزَّيديِّ في حارَةِ ابْنِ دينارٍ، تَعلَّمَ فيهِ على يَدِ أَحَدِ الشُّيوخِ مَبادِئَ اللُّغَةِ العربيَّةِ، والحِسَابَ والأَدبَ والشِّعرَ، واطَّلَعَ في مكتبةِ المَسْجدِ عَلَى الكُتُبِ العديدةِ في الأدب والشِّعرِ والتَّاريخ.

وعندَما بَلغَ ياقوتُ السَّادسَةَ عَشرةَ مِنْ عُمُرِهِ أَتْقَنَ القِراءَة والكتابَةِ بِبراعَةٍ، وصارَ عَلَى قَدرٍ كبيرٍ مِنَ الثَّقافَةِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، ثُمَّ عَلَّمهُ وَليُّهُ عَسكَر مَبادِئَ التِّجارَةِ، وسَافَرَ مَعهُ إلى البُلدانِ المُجاورَةِ لِبغدادَ مِنْ أَجْلِ العَمَلِ بِالتِّجارَةِ، وبِشَكلٍ خاصٍّ إِلى جَزيرَةِ «كيش» الواقعةِ في جنوب الخليج العربيِّ، وكانَتْ جزيرةً شَهيرةً في التِّجارَةِ وَقْتها وعَامِرَةً بِالزُّروعِ والأَغنامِ والأَبقارِ والكروم، وفيها أُسطولٌ بَحريٌّ تجاريٌّ تُحملُ إليها، كما تُنْقَلُ مِنْها البَضائِعُ إِلَى الهِنْدِ والصِّين.

ولَمَّا اطْمأَنَّ عَسكَرُ إِلى دِرايَةِ ياقوت بِفنون البيعِ والشِّراءِ وإِتقانِهِ لأُصولِ التِّجارَةِ، جَلَسَ في مَتْجَرِهِ في بغدادَ ونَدبَ ياقوتَ لِلسَّفَرِ وقيادَةِ قافلَتِهِ التِّجاريَةِ إلى جزيرةِ كيش، وكَذلِك إِلى بِلادِ فارس والشَّام، وفلسطينَ ومِصْرَ والحِجازِ، وتَوالَتْ أَسفارُ ياقوت التِّجاريَةُ، وكَانَ أَثناءَ رِحلاتِهِ وأسفارِهِ التِّجاريَّةِ يُدَوِّنُ مُلاحظاتِهِ الخَاصَّةَ عَنِ الأَماكنِ والبُلدانِ والمساجدِ والقُصورِ والآثارِ القَديمَةِ والحَديثَةِ، والحكاياتِ والأَساطيرِ والغَرائبِ والطَّرائفِ.

وعِنْدَما بَلَغَ ياقوتُ الحَادِيَةَ والعشرينَ مِنْ عُمرهِ، وقَعَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ مولاهُ عَسكر جَفوَةٌ وخِلافٌ، فَأَعْتَقَهُ بِمُوجِبِهِ مولاهُ، وأَبعدَهُ عَنهُ، فَانْدَفَعَ يَاقوت نَحْوَ المُطالَعَةِ والقِراءَةِ والنَّسْخِ، واتَّخذَ لَهُ دُكاناً يعملُ فيها بِتجارَةِ الكُتبِ ونَسْخِها لِمَنْ يَرغبُ بِشِرائِها.

❋ ❋ ❋

عِنْدَما تَوسَّعَتْ تجارَةُ ياقوت في الكُتبِ والمَخطوطاتِ فَكَّرَ بِالسَّفَرِ إلى البُلدانِ المجاورةِ للمُتاجَرَةِ بِالكُتُبِ، فكانَ يحملُ الكُتُبَ إلى البُلدانِ ويعودُ منها حاملاً كُتُباً جَديدةً مِمَّا مَكَّنَهُ مِنَ الاطلاعِ عَلَى مَواردِ الثَّقافَةِ العَربيَّةِ والإسلاميَّةِ الوَفيرة، ومِنَ التعرُّفِ على العُلماءِ الّذين يُودونَ شِراءَ الكُتبِ.

وفي إحدى المَرَّاتِ سَافَرَ إلى مَدينةِ حَلبَ، وكَانَ ذَلِكَ في عَام (609) هجريَّة، فَطَابَ لَهُ المُقامُ فيها، فَمَكثَ فيها عِدَّة سَنواتٍ تعرَّفَ خِلالَها عَلَى الوزيرِ والمُؤَرخِ والأَديب «القِفطيّ» الَّذي كَانَ مُغرماً باقتناءِ الكُتُبِ وشِرائِها، وجَرَتْ بَينَهما مُناظراتٌ ومحاوراتٌ شعريَّةٌ وأَدبيَّةٌ.

ثُمَّ اضْطَرَّ ياقوتُ للسَّفَرِ إلى دمشقَ، وهُناكَ جَرَتْ بَينَهُ وبينَ رَجُلٍ بَغْدادي مُناظَرَةٌ علميَّةٌ وتاريخيَّةٌ أَدَّتْ إلى اختلافِهما في الرَّأْي، مِمَّا أَدَّى إلى نَقمَةِ أَهالي دمشقَ عَليه، فَخَرجَ منها خائفاً يَترقَّبُ تَحتَ جُنْحِ الظَّلامِ كي لا ينالهُ سُوءٌ مِنَ الحُكَّامِ والأَعيانِ بِسبَبِ تَعَصُّبهِ لِرَأْيِهِ.

ذَهبَ إلى حَلبَ، ومِنْها إلى الموصلِ، ثُمَّ مدينةِ إربلَ، ومِنْها قَصَدَ خُرَّاسانَ، وأَقَامَ في مدينَةِ نيسابورَ فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ وتَزَوَّجَ فيها، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى مدينَةِ «مَرو»، وصارَ يَنْتَقِلُ ما بينَ

خُرّاسانَ ومَرو وخَوارِزمَ، عاكفاً على التَّأليفِ والتَّصنيفِ والمُطالَعَةِ والنَّسخِ إلى جانبِ تجارَتِهِ في الكُتبِ الّتي لَاقَى مِنْ خِلالِها صِيتاً عظيماً في تِلكَ البِلاد. وكَانَ لا يَمرُّ في مدينةٍ أَو قريَةٍ أَو سبخَةٍ مِنَ الأرضِ إلا دوَّنَ عَنْ موقِعِها وصفاتِها وأنهارِها وجبالها وعادات أهلها في كتابِهِ الّذي أَسْماهُ فيما بَعدُ «مُعجَم البُلدانِ».

وعِنْدَما اجتاحَ التَّتارُ خَوارزمَ وما يليها مِنَ البُلدانِ اضْطر إلى العودةِ إلى العِراقِ، فَنَزَلَ في مَدينةِ إِربلَ وَلكِنْ لم يُطبْ لَهُ المُقامُ فيها، فكَتبَ إِلى الوزيرِ «القِفطيِّ» في حَلبَ رِسالَةً يَسْتَأْمِنُهُ فيها على حياتِهِ، ويعْتذرُ فيها إليهِ، ويصِفُ فيها مُشاهداتِهِ للبُلدانِ والأَصقاعِ الّتي زارَها، وكانَتْ هَذِه الرِّسالةُ غايةً في الرَّوعَةِ والجَمالِ والبيانِ، فَأقرها القفطيُّ الوزيرُ لأَميرِ البِلادِ، فَعفا عَنْهُ، فَعادَ إِلى حَلَبَ ليتفرغ للتأليفِ والتَّصنيفِ ومُجالَسَةِ العُلماءِ، ومُطارَحَةِ العِلمِ والأَدبِ مَعَهُمْ، ثُمَّ سافَرَ إِلى الشَّامِ ومِصرَ، وعادَ إِلى حَلبَ ثانيةً، وعَمَدَ إِلى نَسخِ وتَبييضِ مسوداتِ كتابِهِ مُعجَمِ البُلدانِ سَنةَ (625) هجريَّةً، ثُمَّ أَقامَ في حَلبَ بقيَّةَ عُمرِهِ إِلى أَنْ أَدْرَكَتْهُ الوَفاةُ سَنة (626) هجريَّةً.

❁ ❁ ❁

خِلالَ إِقامَتِهِ الأخيرةِ في حَلبَ تعرَّفَ ياقوتُ الحَمويُّ على مَجموعَةٍ مِنَ العُلماءِ الّذين كانوا يُقيمونَ فيها وعلى رَأْسِهِم العَالِمُ والمُؤَرخُ الشَّهيرُ «ابْنُ الأَثيرِ»، وقَبْلَ وَفاتِهِ أَوصاهُ بِوَقْفِ كُتُبِهِ ومُؤَلفاتِهِ الّتي قَامَ بِتبييضها إِلى مَكتَبَةِ جامِعِ الزَّيديِّ في بَغدادَ، وهو المسجدُ الّذي كانَتْ ذُكرياتُهُ العلميَّةُ مُتعلقَةً بِهِ مُنذُ صِغرِهِ، غَيرَ أَنَّ ابْنَ الأَثيرِ مَعَ جَلالِ عِلمِهِ وورَعِهِ لَمْ يَفِ بِوَصِيَّةِ صَاحبِهِ.

تَركَ ياقوتُ الحَمويُّ العَديدَ مِنَ المُؤلفاتِ الهَامَّةِ، منها:

1 ـ مُعجَم البُلدان: وهو أَشهرُ كُتُبِهِ قاطِبَةً، وكانَ مَنهجُهُ في هَذا الكتابِ موسوعيّاً وعلميّاً دقيقاً وتاريخياً وجُغرافياً، ذَكَرَ الفُتوحَ أَوَّلاً ووصَفَ أَقاليمَها ذاكِراً أَسْبابَ تَسميتِها واشتقاقَ أَسمائِها لُغَوِيّاً وأَسمَاءَ العُلماءِ والأُدباءِ والشُّعراءِ والشُّيوخِ الّذين نُسِبوا إليها. وكان هَذَا المُعجَمُ مِنْ أَهَمِّ كُتبِ الجغرافيا والتَّاريخِ الَّتي جَادَتْ بِها حضارَتُنا العَربيَّةُ والإسلاميَّةُ، وقَدْ أَشادَ بِهِ المُسْتَشرقون كَثيراً، واعْتَبروهُ مِنْ روائعِ ومَحاسِنِ الحضارَةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ.

2 ـ معجم الأُدباءِ: وهو كتابٌ هَامٌّ جَمعَ فيهِ أَخبارَ النُّحويينَ والقُراءِ واللُّغويينَ والشُّعراءِ والمُؤَرخينَ والكُتابِ ومَنْ صَنَّفَ في الأَدَب كِتاباً.

3 ـ مُختصر جَمْهَرةِ النَّسَبِ لِابْنِ الكلبيِّ.

4 ـ مُعجَم الشُّعراءِ.

5 ـ كتاب المُبتدأ والمَآلِ في التَّاريخ.

6 ـ كِتاب أَخبار المُتَنبي.

7 ـ كتاب أَوزانِ الأَسْماءِ والأَفْعالِ الحَاصِرَةِ لكلامِ العَربِ.

8 ـ كتاب رَدّ عَلى ابْنِ جِنيٍّ في كلامِهِ عَلَى الهَمزَةِ والأَلفِ في سِرِّ الصِّناعَةِ.

9 ـ كتاب «المختلفِ صَعقاً والمتَّفقِ وَضعاً» مِنْ فتوحِ البُلدانِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ مَاذَا قَدَّمَ ياقوتُ الحموَيُّ لِلأَجيالِ؟

2 ـ إِلى مَنْ يعودُ نَسبُ ياقوت الحموَيِّ؟

3 ـ ما الذي دَفَعَ عَسكر لإِيداعِ ياقوت في الكُتَّابِ؟

4 ـ ماذَا أَتقنَ ياقوتُ الحمويُّ عِندَمَا بَلغَ مِنَ العُمرِ (16) سنةً؟

5 ـ أَيْنَ تقعُ جَزيرةُ كيش، ومَاذا كانَتْ؟

6 ـ ماذا كانَ ياقوتُ يفعلُ أَثناءَ سَفراتِهِ ورحلاتِهِ؟

7 ـ لماذَا خَرجَ ياقوتُ مِنْ دِمشق خائفاً يَترقَّبُ؟

8 ـ كيف كانَ مَنْهجُ ياقوت في كتابِهِ مُعجمِ البُلدان؟